الكيان الصهيوني والولايات المتحدة

في نقد القيادات العربية ـ الأميركية

. ميشال شحادة * .

لايزال الجدلُ مستعرًا حول ورقةٍ تناولتْ تحليلَ اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، كتبها البروفسوران ستيفن والت من جامعة هارڤرد، وجون ميرشايمر من جامعة شيكاغو.[1] وتَطْرح الورقة أنّ الكيان الصهيوني يتحكّم بالسياسة الخارجية الأميركية بطريقتين: ١ ـ عَبْرَ «لوبي» أَحْكَمَ السيطرةَ على جهازَي الحكومة التشريعي والتنفيذي، وأصبح مرجعيةً سياسيةً لكلّ ما يتعلّق بـ «الشرق الأوسط.» ٢ ـ عَبْرَ التحالف مع «المسيحيين الصهيونيين،» المنظَّمين في كنائس غنية مُسيَّسة ومؤدلجة وتتمتّع بتأثيرٍ متزايدٍ في المجتمع الأميركي وفي الحزب الجمهوري الحاكم.

ولمّا كان فهمُ العلاقة بين الكيان الصهيوني والإمبريالية يشكّل أهميةً استثنائيةً للقوى المناهضة، فإنّ ما نَطْمح إليه هنا هو مناقشةُ فهم تلك العلاقة التي حَيّرت «العقلَ» السياسي العربي منذ احتكاكه التناحري الأول بالصهيونية. فرغم محاولات إماطة اللثام عن هذه العلاقة، وآخرُها مساهمةٌ قيمةٌ قدّمها د. إبراهيم علّوش[2] من الأردن، إلاّ أنّها بقيتْ تفتقر إلى عناصر جوهرية تتعلّق بفهم **مبادئ** علاقة الكيان الصهيوني بالغرب صحيح أنّ تفاصيلَ هذه العلاقة وأشكالَها ووعيَ أطرافها لها قد تطوّرتْ وتعمّقتْ باستمرار، غير أنّ مبادئ هذه العلاقة لم تتغيّر. ومن الضروري فهمُ هذه المبادئ؛ ذلك لأنّه يُمْكن ترميمُ الخطإ الناجم عن تقييم التفاصيل وحصرُ نتائجه السلبية، وأما الخطأُ في فهم الأساسيات، فنتائجُه السلبية كارثيّة.

إنّ لفتةً إلى الوراء ستُساعدنا على تمييز مدرستين متصارعتين في فهم هذه العلاقة. **واحدة** ترى، كما ناقشتْ ورقةُ ميرشايمر ـ والت، أنّ الكيان الصهيوني يسيطر على مركز القرار الأميركي في «الشرق الأوسط» بفعل لوبي ضاغط يستمدّ قوتَه من جاليةٍ يهوديةٍ متوغّلةٍ عميقًا في المجالات الحيوية الأميركية. **وثانية** تؤكّد أنّ الولايات المتحدة الإمبريالية هي السيد، وما الكيانُ الصهيوني سوى تابعٍ أو ـ بالأكثر ـ شريكٍ صغيرٍ مدلَّلٍ بسبب دوره المتميّز في خدمة السياسة الخارجية الأميركية.

• المدرسة الأولى تستطيع أن تَسْتحضر عشراتٍ من الشواهد المادية لدعم نظريّتها القائلة بتحكُّم الكيان الصهيوني في السياسة الخارجية الأميركية، ومدى قوة اللوبي الصهيوني على الانتقام ممّن يجرؤون على انتقاد أيّ سياسة أو تصرُّف يتعلّقان بالكيان الصهيوني، حتى عندما يتجسَّس هذا الأخيرُ على الولايات المتحدة نفسها. كما تستطيع هذه المدرسة أن تشير إلى عشرات الدلائل التي تُثْبت قوةَ ذلك اللوبي في «توريط» السياسة الأميركية في ما يبدو معاكسًا لمصالح الولايات المتحدة في العالم العربي، مثل سياستها في احتلال العراق ومحاولة «جرّ» الولايات المتحدة الآن إلى حرب مع إيران

والحقّ أنّه يَصْعب عدمُ الاقتناع بأنّ الأمر يبدو وكأنّ الكيانَ الصهيوني يُمْسك بالفعل بزمام السياسة الأميركية في المشرق العربي. ومن الصعب أيضًا، أمام زخم الدلائل، إقناعُ

---

* ـ أحدُ مؤسِّسي «تجمُّع فلسطين الحرّة في الولايات المتحدة،» وأحدُ ثمانية في لوس أنجلس استُهْدِفوا منذ تسعة عشر عامًا بالإبعاد التعسُّفي بسبب ممارسة حقِّهم الدستوري في دعم القضية الفلسطينية سياسيّاً داخل الولايات المتحدة. قُبِض عليه ورفاقه عامَ ١٩٨٧، واتُّهموا بالإرهاب، وسُجِنوا في زنازين منفردة لمدة ثلاثة أسابيع. تُسمّى قضيتُهم «أُمّ قضايا الحقوق المدنية في الولايات المتحدة »

١ ـ John J. Mearsheimer and Stephen Walt, "The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy," **London Review of Books**, March 2006.

٢ ـ «اللوبي اليهودي وأميركا. مَنْ يسيطر على مَنْ؟»، تقييم لورقة البرفسوران والت وميرشايمر، بقلم د إبراهيم علوش، وُزِّعتْ على الإنترنت

قيادات الجاليتين العربية والإسلامية في أميركا ترى هذه بلداً بريئاً يستغلّه لوبي شيطاني صهيوني.

أصحاب هذه المدرسة بعكس ذلك؛ بل إنّهم يَعْجبون كيف لا يرى الآخرون ما يرَوْنه. والحال أنّ قيادات الجاليتيْن العربية والإسلامية في الولايات المتحدة هم، في الغالب، من أتباع هذه النظرة، التي ترى الولايات المتحدة بلدًا بريئًا يستغلّه لوبي شيطاني يساهم في توريطه بقضايا لا شأن أو إرادة له بها، ويَدْفعه إلى سياساتٍ وحروبٍ لا تقدِّم عن ذلك البلد سوى صورةٍ مشوَّهةٍ، وسمعةٍ مدمِّرةٍ، وضررٍ يلطِّخ سجلَّه (الناصعَ البياض!) ويقوده إلى عكس ما تتطلّبه «المصالحُ القوميةُ الأميركيةَ الحيوية.» ويفسِّر هذا التفكيرُ برامجَ «المجموعة الأميركية المختصّة بفلسطين»[1] التي تَعْتبر أنّ مهمّتها هي «التعبيرُ عن المصالح الأمنية للولايات المتحدة من خلال تشكيل دولة فلسطينية.»[2] وقد كتب السيد حسين ايبش مجسِّدًا تفكيرَ هذه المجموعة ذاتِ الصلة الحميمة بوزارة الخارجية الأميركية، مهاجمًا البرفسوريْن أسعد أبو خليل وجوزيف مسعد لتعارضهما مع التوجُّه السياسي لمؤسسته المتحالفة مع الإدارة الأميركية، فقال: «إنّ هذا التفكير [تفكير البروفسوريْن ومجمل المعارضين لتوجُّههما بشكلٍ عامّ] قد قاد الجاليةَ العربيةَ الأميركيةَ إلى أن تُقْصي نفسَها عن النظام السياسي [الأميركي] بشكل كبير، وهَمَّشَ دورَها في تكوين السلوك السياسي [الأميركي]، متيحًا للوبي الإسرائيلي بذلك ملعبًا خاليًا دون معارضة...»[3] وكأنّه كان بالإمكان تحقيقُ عكس ذلك لو أنّ الجاليةَ العربيةَ الأميركيةَ انخرطتْ بشكلٍ أعمق في النظام السياسي الأميركي!

وعليه، فإنّ أتباع هذه المدرسة يسعَوْن إلى كشفِ قناع الثعلب الصهيوني المخادع أمام الرأي العامّ الأميركي. وهذا لا يتمّ، كما يزعمون، إلاّ من خلال التمرّس العربي بالتعامل مع الإعلام الرسمي الأميركي، وإتقانِ لغةِ مخاطبته. كما تطالب المجموعاتُ المذكورةُ بالتغلّب على اللوبي الصهيوني في المجاليْن الانتخابي والضغط السياسي، وذلك بحشدِ القوى، وجمعِ الأموال، ورصدِها لبناءِ «لوبي عربي» ينافس اللوبي الصهيوني. وبذلك يتمّ إرجاعُ الأمور إلى نصابها «الصحيح،» وإنقاذِ المارد الأميركي «البريء» من براثن اللوبي الصهيوني المخادع، فيعود بذلك إلى قواعده «الطبيعية»... إلى جانب العرب! ذلك أنّ السياسة الأميركية، كما يؤكّد ايبش، هي «محصّلةٌ لحركة أجزاء مكوّناته [أي مكوّنات المجتمع الأميركي] التي تتنافس بشكل حرّ للتأثير ضمن نظامٍ أُعِدّ بالضبط ليُضْغَطَ عليه من قِبل أيِّ فصيلٍ ينوي التأثيرَ في السياسة والقانون...»[4] كذا، بكلّ بساطة، ومن دون أيّ اعتبار للعوامل المادية والموضوعية التي تتعلّق بمقدّرات القوى المتنافسة في المجتمع الأميركي وتأثيرها السياسي.

وقد استطاعت الجماعاتُ العربيةُ الأميركية التي تضع ذلك الهدفَ نصب أعينها ومبرِّرًا لوجودها، وتَعْمل بموجب هذه الفرضية منذ خمسين عامًا، إقناعَ نسبةٍ لا بأس بها من الجالية العربية الأميركية بصحّة هذا التوجُّه، فحَرَمَتْها بذلك من اختبارِ أساليبَ وأفكارٍ أخرى في الدفاع عن مصالحها المهدورة والحال أنّ هذا التوجُّه **هو** الذي أدّى إلى تهميش الجالية العربية الأميركية وتسبَّبَ في هشاشة دورها السياسي. وأصحاب هذا التوجُّه، في محاولةٍ لتغطية فشلهم، يتّهمون بشكلٍ دائم كلَّ الذين يتقدّمون بفكرٍ تستقوي به الجاليةُ

١ـ The American Task Force On Palestine (ATFP): **Purpose: Our Mission and Purpose.**

٢ ـ www.americantaskforce.org/mission.htm

٣ ـ ٤ ـ Hussein Ibish, "Is Arab-American Irrelevance our Goal?", **The Daily Star**, May 19, 2006

العربيةُ في صراعها الاجتماعي ـ السياسي بدلاً من تفكير هذه المجموعات العربية الأميركية الهزيلة في واشنطن. فأعضاء هذه الأخيرة يروْن أنّ تحوُّل الجالية إلى فكرٍ سياسي متعارضٍ مع مسيرتهم سيؤدّي إلى فقدان امتيازاتهم التي ارتبطتْ بالمؤسسات والشرائح الاجتماعية الحاكمة والمعادية لكلّ ما هو عربي ومسلم. ولذا حاربوا كلّ مَنْ سوّلتْ لهم نفسُهم مجردَ التساؤل عن توجهٍ بديل، وذلك في محاولة لتأليب الرأي العامّ العربي الأميركي عليهم وعلى أفكارهم. كما أنّهم يصدِّرون فشلَهم نحو الجالية العربية المهاجرة بتحميل أبنائها مسؤوليةَ الفشل لأنّ هؤلاء، كما يدّعون، جاهلون بالنظام «الديموقراطي» الأميركي، وغير ناضجين، ولا يقومون بدعم قيادات الجالية بالمال الكافي لمواجهة الدعاية الصهيونية الثرية. كما يتّهمونهم أيضًا بأنّهم متقوقعون لا يشاركون في الانتخابات، مع أنّ الإحصائيات تقول عكس ذلك: فقد كتب الأكاديمي شبلي تلحمي: «بموجب إحصائياتٍ حديثة، فإنّ العرب الأميركيين يتبرّعون نسبيّاً أكثرَ للانتخابات الرئاسية من أيّ مجموعة إثنية أخرى في أميركا.»[1] كما كتبتْ آن بَيرْ: «العرب الأميركيون والمسلمون ينتخبون دائمًا بأعداد كبيرة. التقديرات أنّ ٧٩٪ منهم مسجّلون للانتخاب، و٨٥٪ منهم يَنتخبون.»[2] وفي معظم الأحيان، تتميّز تلك القيادات، المنصَّبة قسريّاً على الجالية، بكونها عنصريةً حيال الأقليات «الملوّنة،» إذ تصنِّف نفسَها بيضاءَ، وتمارس عنصريةً خفيةً ضدّ «الملوّنين،» رافضةً أن ترى أنّنا ـ كعرب ـ «ملوّنون» في نظر «البِيض» و«الملوّنين» معًا!

وهكذا باتت الجاليةُ العربية الأميركية، ضمن هذا التوجُّه الخاطئ، أضعفَ من الأيتام على مأدبة اللئام. وانعكستْ برامجُ القيادات المذكورة في أشكال صُوَريةٍ سطحية لا تُعير أهميةً إلا للمظاهر الاحتفالية، وأخذِ الصور التذكارية مع المسؤولين الرسميين، وبَيْعِها إلى الجالية بوصفها قمّةً في الإنجاز السياسي! والمحزن أنّ هذه القيادات، رغم انبطاحها وقبولها بالفتات على مائدة النخبة الحاكمة، لا تزال تتلقّى صفعاتٍ متتاليةً من هذه النخبة التي تَرْفضها جملةً وتفصيلاً (مَنْ ينسى، مثلاً، رفضَ المرشّحين الأميركيين المذلّ لتبرُّعات العرب الأميركيين، بمن فيهم جو كنيدي الذي رَفَضَ تبرُّعات السناتور العربي الأميركي جيمس أبو رزق، وهيلاري كلينتون التي أرجعتْ تبرُّعًا من ٥٠٠٠٠ دولار من التحالف الإسلامي الأميركي، و١٠٠٠ دولار من عبدالرحمن الأمودي؟)[3]

• وهناك المدرسة الأخرى، التي تَطْرح أنّ أميركا هي الأساس، وأنّ الكيان الصهيوني أداةٌ من أدواتها يستمدّ دورَه ووزنَه من قدرته على خدمة سياستها كمّاً ونوعًا. وإبّان حرب الخليج الأولى زعمتْ هذه المدرسة أنّ أهمية «إسرائيل» للولايات المتحدة قد تلاشتْ بعد اكتشاف الغرب عجزَها عن مواجهة العراق، وعجزَها عن أن توفِّر على الولايات المتحدة مغبّةَ التدخُّل العسكري المباشر في المنطقة. والآن

---

١ ـ Shibly Telhemy, "Arab and Muslim America: A Snapshot," **The Brookings Review** (The Brookings Institute, Winter 2002, Vol. 20, No.1, p. 14-15).

٢ ـ Ann Pepper, "Muslim Americans Rallying to Get out Vote in November," **The Orange County Register**, Mar. 14, 2004.

٣ ـ BBC News, "Hillary Returns Pro-Palestinian Cash," BBC news website: http://news.bbc.co.uk/2/hi/americas/992299.stm (Thursday, 26 October, 2000).

اللوبي الصهيوني جزءٌ عضويٌ من التركيبة الحاكمة في الغرب، يضغط في اتجاه مصالح الشرائح الحاكمة، لا بعكسها.

ينظّرون بأنّ أهمية «إسرائيل» قد انخفضتْ بعد هزيمتها في لبنان. لكنّ التاريخ أثْبت عقمَ هذا التحليل، إذ ازداد الدعمُ الأميركي للكيان الصهيوني ولا سيما بعد أحداث ١١ سبتمبر وحرب لبنان.

ضمن هذه المدرسة الثانية يمكن أن نحدِّد ثلاثةَ توجُّهات تلتقي، وبدرجات متفاوتة، في فهم العلاقة بين الكيان الصهيوني والإمبريالية الغربية

١ ـ توجُّهٌ يعامِل هذا الكيانَ كأنّه مجردُ أجير للأميركي، وإنْ كان مُدَلَّلاً. ويستطيع أصحابُ هذه الاتجاه استحضارَ عشرات الأدلّة الداحضة لنظرية المدرسة الأولى بالبرهنة على أنّ «سياسة أميركا في المشرق العربي تتناغم وتتكامل تاريخيّاً مع سياستها الإمبريالية العالمية،» كما كتب تشومسكي.[1] وتتبنّى هذا التحليلَ، بشكلٍ عامّ، مجموعاتٌ من اليسار العربي والأميركي، بقيادة تشومسكي، والبروفسور جوزيف مَسْعَد.

٢ ـ توجُّهٌ ثانٍ يرى أنّ الكيان الصهيوني استطاع أن يطوِّر دورَه من الأجير ـ الأداة إلى موقع الشريك ـ الأداة للإمبريالية الأميركية. هذه النظرية، التي أسَّسَ لها د. جورج حبش،[2] شكّلتْ في حينه أكثرَ المحاولات العربية تطوُّرًا في محاولة فهم علاقة الكيان الصهيوني بالغرب الإمبريالي. وقد كان دورُ هذا الكيان في خدمة السياسة الأميركية في أميركا الوسطى واللاتينية هو الذي قاد إلى ذلك الاستنتاج آنذاك. ولكنّ نموذج التحليل الذي اتُّبِع، أي المنهجية الماركسية الاقتصادية البحتة، فَشِلَ في التوصُّل إلى كنه هذه العلاقة، إذ ارتأى أنّ العلاقة برمّتها اقتصاديةٌ، وعليه، فإنّ هزيمة الكيان الصهيوني تتطلّب ـ في عرف هذا التوجُّه ـ جعلَه مشروعًا «خاسرًا» لكي يتخلّى الغربُ عنه، مقدِّمةً لإجلائه عن المنطقة. وواضحٌ أنّ العامل الاقتصادي، وإنْ كان أساسًا في العلاقة المذكورة، يَعْجز عن الإحاطة بمجملها، ويَفْشل في تفسير الكثير من أمورها عند الامتحان

٣ ـ التوجُّه الثالث هو الأكثر تطوُّرًا وقربًا من سبر غور العلاقة المذكورة. فهو يعزو مصدرَ نجاح اللوبي الصهيوني وقوته في أميركا إلى كونه جزءًا لا يتجزّأ من تركيبة النخبة الإمبريالية الحاكمة. بيْد أنّ هذا التوجُّه يتعثّر عندما يعتبر «إسرائيل» كيانًا مستقلاً يشكّل لبُّ علاقته مع الغرب تقاطُعَ مصالح لا غير. فبموجب ما تقدَّمَ يمكن أن تتنافس على علاقة «إسرائيل» الخاصة مع الغرب دولٌ عربيةٌ، وأنْ تُقْصي (أو تُحيِّد) موقعَ «إسرائيل» الخاصَّ مع أميركا لصالح كيانٍ عربيٍّ يُثْبت لأميركا أنّه يتقاطع بشكلٍ أوطَد مع مصالحها الإمبريالية... تمامًا كما تفعل السعوديةُ ومصرُ والأردن

هل من تفسيرات أخرى ممكنة؟

نقطة الانطلاق للإجابة على ذلك تبدأ من الاتفاق مع التحليل الذي رأى أنّ اللوبي الصهيوني ليس إلاّ جزءًا عضويّاً من التركيبة الحاكمة في الغرب. إنّه لوبي أميركي **محليّ** يَضْغط في اتجاه مصالح الشرائح الاجتماعية الأميركية الحاكمة، لا بعكسها

ليس المقصود هنا أنّ المجتمعَ الأميركي منسجم، أو أنّ نظامَه السياسي يقع خارجَ قوانين الصراع الاجتماعي، أو أنّنا عندما نتكلّم عن «مصالح أميركية» فإنّنا نتكلّم عن «مصلحةٍ قوميةٍ» موجودة خارج هذا الصراع. فالحال أنّ هذه «المصلحة القومية» هي نتيجةٌ لعمليةٍ صراعيةٍ اجتماعيةٍ داخليةٍ يَكْتب تفاصيلَها الجانبُ المنتصرُ، الذي يتكوّن في العادة من ائتلافٍ تتحدّد طبيعتُه

١ ـ Noam Chomsky, "The Israel Lobby?" (Znet: www.zmag.org/content/showarticle.cfm?ItemID=9999, March 28, 2006)

٢ ـ د. جورج حبش، «في الذكرى المئوية للحركة الصهيونية العالمية،» مجلة **الهدف**، ١٩٨٥

بالمصالح التي تنطوي تحت لوائه. وحقيقةُ قوةِ اللوبي الصهيوني تأتي من كونه عضوًا في هذا الائتلاف الحاكم. ويشكّل اللوبي الصهيوني رأسَ حربةِ الدفاع عن فكرةٍ مؤدّاها أنّ دعم الولايات المتحدة لـ «إسرائيل» ولسياستها العدوانيةِ هو جزءٌ من «المصلحة القومية.» كما يتخصّص اللوبي المذكور في مراقبة سياسات الإدارة الأميركية في ما يتعلّق بالكيان الصهيوني، وبالمعارك الاجتماعية الضارية ضدّ الطبقات العاملة والفقيرة والأقليات العِرْقية «الملوّنة» ويسعى اللوبي إلى إبقاء القوى المعارضة ضعيفةً ومهزومةً ومطواعةً، مستخدمًا صفةَ «حقّ الدفاع» عن اليهود في مواجهة «المعادين للساميّة.» والحقّ أنّه عندما تمّ الكشفُ، مثلاً، عن أنّ «رابطة معاداة التشهير» اليهودية (ADL) في مدينة سان فرانسيسكو كانت تتجسّس على النشطاء المعارضين للسياسة الأميركية، لم يكن ذلك التجسُّسُ ضدّ العرب الأميركيين فقط، بل تعدّاه ليضمّ جميع التوجُّهات السياسية الممثّلة لمصالح السود الأميركيين، وللمعارضين للتدخُّل السياسي والعسكري في أميركا الجنوبية والوسطى والفيليبين وكوريا وجنوب أفريقيا... إلخ، إضافةً إلى دعاةِ السلام والحقوق المدنية وحقوق المهاجرين وحقوق الإنسان.[١]

أما فيما يتعلّق بتأييد الكيان الصهيوني تحديدًا، فالملاحَظُ أنّ الاحتفال بـ «عيد استقلال إسرائيل» مثلاً يتمّ حتى في مدنٍ صغيرة حيث تُرفع الأعلامُ الإسرائيلية في الشوارع. والأغرب أنّ المرشّحين لعضوية البلديات أو لرئاستها في مدن أساسية يتّخذون مواقفَ علنيةً من «إسرائيل،» في حين يُفْترض أن يَختصّ ذلك بالمؤسسات الفيدرالية! يُضاف إلى ذلك إصدارُ مجلسَي الشيوخ والنوّاب الأميركيين قراراتِ اعترافٍ ودعمٍ سنويةً «لأعياد إسرائيل بالاستقلال» ـ وآخرُها هذا العام (٢٠٠٦).[٢]

كلّ ذلك يعني أنّ «إسرائيل» أصبحتْ شأنًا داخليّاً أميركيّاً، لا شأنًا تحالفيّاً من وظائف السياسة الخارجية فقط. ولا عجب، والحالُ هذه، أن تُعبِّرالسليقةُ العربيةُ عن هذا الفهم بشكلٍ فطريّ بقولها إنّ «إسرائيل هي الولايةُ الحاديةُ والخمسون الأميركية» بيْد أنّ الأعمقَ من ذلك هو أنّ دولة العدوّ قد دخلتْ إلى قلب الاعتبارات **الأمنية** للإمبريالية الغربية بقيادة أميركا، حتى لم تَبْق ثمةَ فجوةٌ للنفاذِ إليها من أجل فصْم العلاقة بين الطرفيْن فبقاءُ «إسرائيل» ونجاحُها رُبِطا بشكلٍ مباشرٍ بأمان الشرائح الحاكمة في الولايات المتحدة ومصالحها. وهذا ينطلق من رؤية هذه الشرائح إلى الكيان الصهيوني بوصفه تعبيرًا عنها وعن العنصر والحضارة الأوروبيّيْن في المنطقة. فعندما فَقَدَ الاتحادُ السوفياتي موقِعَه كمركزٍ للخطر الوجودي الأول على الغرب الإمبريالي داخل العالم العربي، تبوّأتْ إسرائيلُ موقعَها كرأسِ حربةٍ غربيةٍ غائصةٍ عميقًا في الجانب العربي. وكان ذلك تعبيرًا شاملاً عن مجمل الجوانب السياسية والإيديولوجية والثقافية في المعركة الدائرة للسيطرة على المشرق العربي

قد يرى البعض في هذا المنطق وقوعًا في فخّ أطروحة صموئيل هنتنجتون «صراع الحضارات،»[٣] التي تَفْترض

١ ـ Jeffrey Blankfort via Moi, "The ADL Spying Case is Over, But the Struggle Continues," San Francisco Independent Media Center, September 18, 2002.

٢ ـ 109th Congress, "Recognizing the 57th Anniversary of the Independence of the State of Israel" (In the Senate of the US, 1st session S. RES. 151, May 19, 2005).

٣ ـ Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?" **Foreign Affairs**, Summer 1993.

يتمتع الكيان الصهيوني بمواصفات وقوة يتفوق بها على الكثير من القوى داخل الولايات المتحدة.

أنّ هناك وضعًا بنيويّاً في الحضارتيْن الشرقية والغربية يَفْرض صراعًا بينهما لا يُمْكن تفاديه. غير أنّ منطقَنا لا يتبنّى هذه الأطروحة، وإنما يُقرّ بأنّ هناك هجمةً غربيةً إمبرياليةً شاملةً ضدّ المشرق العربي من طرفٍ واحد، تُقابلُها ردّةُ فعلٍ من المشرق العربي للدفاع عن النفس. ومعنى ذلك أنّ ردّة الفعل ليست من نوع الفعل، بعكسِ ما تَفْترض نظريةُ هنتنجتون.

ثم إنّ القول بأنّ إسرائيل «أُدرجتْ استراتيجيّاً» في المعادلة الأمنية للغرب الإمبريالي لا يعني البترولَ والسوقَ العربييْن فحسب، ولا يعني وَقْعَ ذلك على ما يسمُّونه في الغرب «نمطَ المعيشة الغربية» فقط. وإنّما يتعدّى هذا وذلك إلى مرض «جنون الارتياب» (الپارانويا)، المتوغّلِ في البنية السيكولوجية للطبقة الحاكمة البيضاء في الغرب، خصوصًا تلك التي ترى أنّ عِرْقَها «الأبيضَ» قد بات أقليةً مستهدَفَةً من العوالم الفقيرة «الملوّنة» التي تنتابها «الغيرةُ» من «نجاح البِيض» الاقتصادي في بناءِ مجتمع الوفرة «بمهارتهم وعرقِ جبينهم.» إنّ الطبقة الحاكمة البيضاء في الغرب ترى أنّ مصيرَها كعِرْقٍ وحضارةٍ مهدَّد بالخطر: خطرِ المجتمعات «الملوّنة» في الخارج، وخطرِ المهاجرين الجاثمين في الداخل. وتلك الطبقة الحاكمة البيضاء لا تُخْفي ذلك بل تُعْلنه بشكلٍ دائم وواضح، وتحرِّض المجتمعَ على أساسِه لإبقاء الناس مكبَّلين بسلاسل الرعب من هذا الخطر الوهمي، وتسخِّر لهذا الغرض آلةً إعلاميةً بالغةَ التطور تصل في قدرتها حدَّ تنويمهم مغناطيسيّاً وسلبِ إراداتهم بشكلٍ كامل. وقد نجحتْ تلك الطبقةُ فعلاً: فمعظمُ هذه الجماهير صُهِرتْ وتقولبتْ خلال العقود الماضية على عقليةٍ كولونياليةٍ عنصريةٍ ترى نفسَها في قمّة الهرم البشري، لها حقٌّ «إلهيٌّ» في التصرف بثروات البشرية. والمخيف في الأمر أنّها تَعْتبر نفسَها تجسيدًا للخير والتقدُّم على الأرض، وتستغرب بعد ذلك لماذا «يَكْرهها» العالم! ويتجلّى كلُّ هذا سياسيّاً في تأييد جماهير الغرب الإمبريالي للأصواتِ الأكثرِ قساوةً ضدّ مَنْ تصنِّفهم «أعداءً» أو «ناكرين للجميل» من قِبل الحكومة. والمؤسف أنّ الشعب الأميركي لا يغيِّر نظرتَه ولا يعارض سياسات حكومته إلاّ عندما تَصْطدم بمقاومةٍ صلبةٍ تكبِّد الأميركيين خسائرَ ماديةً وبشرية، كما حدث في فيتنام وكما يَحْدث الآن في العراق.

إنّ تبني هذا التحليل يجعل «إسرائيلَ» إسقاطًا هجوميّاً فريدًا في وسط «العدوّ الخارجي» وتغدو مكافحةُ اللوبي الصهيوني جزءًا من آليةِ مكافحةِ «العدوّ الداخلي» في المجتمات الغربية. والحقّ أنّه ليست ثمة فجوةٌ بين تلك القوى المعادية يُمْكن التسلّلُ من خلالها لأسرِ لبِّ الحاكم الغربي. إلاّ إذا تغيَّرَ الغربُ نفسُه. وهذا لا يلغي، طبعًا، أنّ الكيان الصهيوني يتمتّع فعلاً بحيِّزٍ فيزيائي مستقلّ: فكونُه «إسقاطًا» أو تعبيرًا لا يعني كونَه «خادمًا،» بل على العكس. ذلك أنّه يتمتع، ضمن هذه العلاقة، بمواصفاتٍ وقوةٍ يتفوّق بها على الكثير من القوى داخل الولايات المتحدة الأميركية وتؤهّله للمناورة من أجل خدمة السياسية الأميركية الخارجية. فهو متحرِّر سياسيّاً وعسكريّاً ودستوريّاً من القوانين الداخلية الأميركية التي تحتاج الحكومةُ الأميركيةُ إلى التقيُّد بها، مثلما حدث عندما ساهمتْ «إسرائيلُ» بإيصال السلاح الأميركي إلى حركة «الكونترا» المعادية للنظام الاشتراكي في نيكاراغوا، أو عندما قامت بتدريب الأجهزة القمعية للأنظمة الديكتاتورية في أميركا الوسطى.[1] كما قامت «إسرائيل» بتصدير التقنية النووية ودرّبت الأجهزةَ الأمنيةَ لشقيقتها حكومة الأپارتهايد على أساليب خبرتها

١ ـ Benjamin Beit-Hallahmi, "U.S.-Israeli-Central American Connection," **The Link**, Volume 18, Issue 4, Pages 1-12, November 1985.

المتطوِّرة في قمع الشعب الفلسطيني من أجل ممارستها ضدّ الشعب الأفريقي الأسود.[1] ومن هنا تأتي فائدةُ الكيان الصهيوني غير المقيَّد بهذه القوانين، إذ يقوم بهذه العمليات نيابةً عن الولايات المتحدة دون تعقيدات الوضع الدستوري والسياسي والشعبي الأميركي الداخلي المعارض. إضافةً إلى ذلك، فإنّ الكيان الصهيوني يحوز ديناميةً اجتماعيةً وسياسيةً وبيئيةً مستقلة، ويتعامل بقوانين اقتصادية وإيديولوجية، طائفيةٍ ـ قبلية، لها حركتُها الذاتية. فالكيان ليس موجودًا فقط لتنفيذ الأوامر، بل له احتياجاتُه الخاصة وتناقضاتُه مع المركز، وإنْ بدت أحيانًا حادّةً، هي تناقضاتٌ حقيقية لا تقع خارج هذا المفهوم، ولا تتعارض معه.

ماذا يعني هذا؟

يعني أنّ هزيمةَ المشروع الإمبريالي في المنطقة العربية لن تتمّ إلاّ من خلال ردّ فعل مساوٍ في شموليته للفعل الإمبريالي، وذلك من خلال:

ـ رفض التطبيع مع المشروع الصهيوني في المنطقة العربية، وإدراك أنّ أطرافه الأخطبوطية تمتدّ للنيل من جميع العرب ومن ثرواتهم دون استثناء.

ـ المساهمة في بناء تحالفاتٍ عالمية مع القوى المناهضة التي ترى في النضال ضدّ الإمبريالية تحويلاً للعلاقات الإنسانية على أُسُسِ العدل والمساواة واحترامِ التنوُّع

ـ النضال إلى جانب القوى العالمية ضدّ مشروع العولمة الذي يشكِّل مرحلةً متطوّرةً للإمبريالية.

ـ إطلاق الطاقات الشعبية الديموقراطية، وإدراك أنّ الحاضنة الحقيقية لأيّ مشروع بهذا المستوى والشمولية لا يقف إلاّ على أسس الوحدة والتكامل العربيْن.

ـ أما في الساحة الغربية، فيتمّ النضال بفهم العلاقة العضوية بين اللوبي الصهيوني والشرائح الحاكمة، والانضواء في التحالفات الشعبية التي تَعْمل على قلب موازين القوى الداخلية في المجتمعات الغربية من أجل تغيير مسيرتها السياسية وهذه القوى مشكّلةٌ من القوى الشعبية المتضرّرة من سياسات الشرائح الحاكمة الغربية، ومن الجاليات المهاجرة والسوداء والملوّنة التي تعاني عنصرية تلك النخب الحاكمة واستئثارها بخيرات المجتمعات الغربية.

ـ خلق برامج لا تتهافت خلف الأوهام والفتات والتوجُّهات الفئوية، بل تسعى باستمرار إلى بناء جبهاتٍ عريضةٍ من أجل السلام والعدل ومناصرة قوى التحرُّر العالمية

ـ الوقوف بشكل حازم وراء النهج المقاوم، خصوصًا في فلسطين ولبنان والعراق، وتوظيف جميع الإمكانيات لدعمه كرأسِ حربةِ العرب في المواجهة

إنّ هزيمة الصهيونية ليست مستحيلةً كما يُدّعى، ولكنّها تتطلّب الكثيرَ من الجهد والوقت؛ ذلك لأنّ هجمتها شاملةٌ، وعلى الممانعة أن تكون أيضًا شاملة والتقدُّم في هذه المجالات ليس مستحيلاً: فالكيان الصهيوني يعيش تناقضاتٍ داخلية، ومع بيئته العربية وإنسانها الذي يبحث عن حياة كريمة تتناسب مع تاريخه وإمكانياته. وما صمودُ المقاومة اللبنانية أمام آلة الحرب الصهيونية وردعُها بنجاح إلاّ إثباتٌ على أنّ هذا النهج لا يزال حيّاً ويحقّق الانتصارات.

سان فرانسيسكو

---

١ ـ Jane Hunter, "Israel and South Africa," **Israel Foreign Policy** (South End Press, 1987, posted at the Third World Traveler: www.thirdworldtraveler.com/Global_Secrets_Lies/Israel_SAfrica.html.